الأخبار ■ السبت 3 تشرين الثاني 2012 العدد 1850

تحقيق إعلاني

الساحة... قرية لبنان حـ

عشر سنوات مرّت على انطلاق العمل في تطبيق فكرة غزو القرية للمدينة، متمثلة في «قرية لبنان التراثية»، حيث يُعاد الاعتبار لمركزية «ساحة عين الضيعة»، وإعادة إحياء كل المتعلقات التراثية، من خلال استحضارها في أدق التفاصيل وأكبرها، حتى لائحة الطعام وبطاقة العمل، مروراً بـ«الكوايز» والعلّيّة والعرزال

منهال الأمين

كان التحدي الأكبر لإنشاء مطعم الساحة التراثي، في اختيار المكان، يقول صاحب فكرة المشروع المهندس جمال مكة. منطقة مهملة، مسيّجة بأحزمة بؤس، أراض بور مشرّعة لكل ما هبّ ودبّ من صخب المدينة ومخلفاتها، ومخلفات الضاحية المتفوقة عليها كثافةً سكانية ونشاطاً اقتصادياً، والمتخلفة عنها خدمات وبنى تحتية. فالمنطقة الواقعة في نطاق بلدية برج البراجنة، والقريبة من مطار بيروت، تفتقر إلى أبسط الخدمات، وأدنى مواصفات المنطقة السياحية. فهي لا تشرف على البحر، ولا هي واقعة على قمة جبل لتستفيد من سحر الطبيعة، إضافة إلى مشكلة واضحة في البنى التحتية وشبكة الطرق الموصلة إليها، نتيجة إهمال مزمن تعانيه منطقة الضاحية الجنوبية منذ عشرات السنين. ولذا يؤكد مكة أن التعويل كان على المشروع بحد ذاته، على فكرته القوية والمكتملة العناصر، لكي يكون عامل جذب. قوته يجب أن تتوفر منه وفيه، حتى يستطيع أن يثبت وجوده ويشق طريقه نحو النجاح والاصطفاف في مصاف المؤسسات السياحية الكبرى في لبنان، وربما الشرق الأوسط، كما هي الحال اليوم.

منذ انطلاقة المشروع، حرص القيّمون عليه في خطواتهم التنفيذية على اتباع استراتيجية تتيح تحقيق غايات وأبعاد محددة بدقة، لكي يستقر المشروع بتحققها، ويحقق الهدف من وجوده، تماماً مثلما كانت القرية اللبنانية نموذجاً عن كيان حضاري مكتمل المواصفات، على الرغم من إمكاناتها المتواضعة، حيث يردد أبناؤها المقولة الشهيرة: «فلاح مكفي سلطان مخفي». فوجدت الساحة كمتنفس للعائلة في هذه المنطقة المحرومة، والتي سُلخت عنها هويتها التراثية، وهذا ينسحب على بيروت العاصمة، وعلى سائر المناطق.

وفي أبعاد المشروع، ما قبل وما بعد، نجد: البعد البيئي، الذي يتمثل في الاعتماد على الزراعة وغرس الأشجار المتنوعة والورود، في كل أرجاء الساحة، وصولاً إلى إنشاء محمية طبيعية متكاملة تضم مختلف صنوف الحياة البرية، النباتية والحيوانية. كذلك تعتمد المنشآت على فكرة «العمارة الخضراء»، المرتكزة على «توفير الطاقة، من خلال استخدام المواد المستدامة في العمارة، وهي المواد التي لا تتطلب صيانة دائمة. كما يجري الاعتماد بشكل أساسي على استقطاب ردميات المنازل المهدمة في القرى، وإعادة تدوير كل موادها، للاستفادة منها في عملية البناء.

في البعد المعماري يبرز التنوّع الحضاري، سواء في البيئة الداخلية أو العالمية، فالأحجار المستخدمة في بناء المنشآت اعتمدت على التنوّع الموجود في المناطق اللبنانية: صخرية في الجنوب والشمال والجبل، رملية في بيروت وطينية في البقاع، في حين أن الحجر الرملي كان عمدة البناء، ولا سيما الخارجي منه، لكي يكون ابن بيئته أيضاً. أما في التنوّع الحضاري الخارجي، فنجد ذلك خاصة في الفندق الملحق بالساحة. فقد اعتمد في تأسيس غرفه وتأثيثها على ست وسبعين حضارة متنوعة، نجدها حاضرة في غرفه الخمسين، في تمازج معماري فني، استقي من فكرة «حوار الحضارات»، ودائماً وفق مذهب معماريي المشروع إضفاء أبعاد فكرية وثقافية على كل تفصيل فيه...

أما في البعدين الاقتصادي والسياحي، فقد كان واضحاً أن إنشاء مطعم الساحة في هذه المنطقة تبعه نهضة عمرانية كبيرة أنعشت سوق العقارات والمؤسسات التجارية المحيطة، فساهم مساهمة كبيرة في تنمية المنطقة، وتشغيل عشرات من الأيدي العاملة، وصارت المنطقة تجتذب سياحاً من مختلف أنحاء العالم، يقصدون الساحة لعيش التجربة الجديدة، والاطلاع عليها عن كثب. ويقول مكة إن الموسم السياحي للساحة يمتد على كل أشهر السنة، وإن كان يتأثر سلباً وإيجاباً بنجاح المواسم أو تعثرها، إلا أن المطعم يحافظ على وتيرة مُرضية، طوال أيام السنة.

ويتحدث مكة عن أبعاد أخرى لا تقل أهمية، هدف القيّمون على المشروع إلى وجودها فيه، وتفعيلها مع الوقت. يذكر مثلاً البعد الثقافي، المتمثل في إفراد مساحات لا بأس بها من الفراغات المعمارية لاستقبال نشاطات ثقافية متنوعة، من المؤتمرات والندوات والمهرجانات الشعرية والمعارض الفنية والعروض المسرحية، إضافة إلى «بيت الشعر العربي»، الذي يضم حوالى خمسة آلاف ديوان شعر، ومتحف للحِرف اليدوية. وهناك البعد الاجتماعي، بحسب مكة، والذي يهدف إلى إضفاء طابع اجتماعي على كل أجواء المطعم، سواء للسهرات العائلية أو الحفلات أو الأعراس أو المناسبات الاجتماعية المتنوعة، أو لناحية الأبعاد الإنسانية الأساسية في فكرة المشروع، من خلال شعور من يرتاد المكان بأنه يساهم في دعم مشروع يعود ريعه للأيتام، وكذلك في توفير عدد من الوظائف لذوي الاحتياجات الخاصة، ومعظمهم وافدون من مؤسسات تابعة لجمعية المبرات الخيرية، التي أسسها العلامة الراحل السيد محمد حسين فضل الله، وكانت من مشاريعها أيضاً جمعية السنابل المعمارية، الشركة المنفِذة والمديرة لقرية لبنان التراثية.

ويبقى البعد الأهم، وهو البعد الصحي، الذي يلخّصه جمال مكة باتباع مبدأ «أكل الوالدة». وقد تم اعتماد مواصفات بسيطة، تتمتع بجودة عالية، تم على أثرها استبعاد أية مواد حافظة أو شبه حافظة من أي عملية تحضير للطعام المقدم على موائد مطعم الساحة، وهو نال بناءً على نظام الجودة وسلامة الغذاء شهادة «الإيزو» رقم 22000.

فلسفة الفكرة: أبو أحمد وأنيس فريحة

يطيب دائماً للمهندس المعماري جمال مكة الحديث عن أصول «فلسفية» للفكرة، بمعنى أن العمارة لم تكن يوماً إلا مرتكزة إلى قواعد وأصول ورؤى، ولا يمكن أن تكون عبثية. من هنا، فإن مرتكزات بناء «ساحة عين الضيعة» هي مرتكزات ثقافية وبيئية وسياحية، وبالأساس معمارية، تقوم على فكرة العمارة التدويرية، وخصوصاً مع الأضرار الهائلة التي لحقت بصورة القرية اللبنانية وبنيتها العمرانية التراثية، فجاءت فكرة «الساحة» كخطوة إنقاذية، أقدم عليها الفلاح والقروي اللبناني «أبو أحمد» كما تروي أدبيات المشروع، حين عاد إلى قريته بعد نزوح قسري إلى المدينة «بحثاً عن قوت عياله»، وصُدم بتحولها إلى مدينة هي الأخرى، فصمم على استعادتها، وإعادة رسمها كما كانت، فراح يجمع أدواتها وعناصرها وحجارة بيوتها المهدمة، ثم وضّبها مع أمتعته وحملها غازياً بها المدينة، كغزو مضاد، وكردّ على اندثار روح القرية، «ليكون سبّاقاً في قلب الموازين وتواتر الحضارات. فجسّد القرية التي كادت تندثر في الفراغات المعمارية من القناطر إلى الخان والسطحية والدكان والعلية والعرزال... فكانت قريته متحفاً حياً للبيئة التقليدية القروية».

هكذا يختصر القيّمون على المشروع رسالته، ليخلصوا إلى القول: «أنيس فريحة جسّد قريته بالكلمات والسطور، ونحن جسّدنا القرية، قرية كل اللبنانيين، في عمارة فريدة، أسطر مترجمة إلى مبانٍ، وكلمات مرسومة بعناصر».